الفصل الخامس

التربية والتغير الاجتماعى

التغير الثقافى والتخلف الثقافى :

إن الثقافة ثابتة وإن كانت دائمة التغير ، ثابتة بالنسبة لبعض عناصر من اللغة والقانون إذ تستمر دون تعديل كبير لمدة طويلة من الزمن ، ومتغيرة بمعنى أن جميع عناصرها تخضع لتحول مستمر وإن كان تدريجياً وغير واضح . ويشمل التغير الثقافى ثلاث عمليات أساسية يعرفها علماء الإنسان بأنها : عملية التأصيل ، وعملية الانتشار ، وعملية إعادة التفسير . فعملية التأصيل تعنى اكتشاف أو اختراع عناصر جديدة فى الثقافة . ومن أمثلة ذلك نجد أن التربية التقدمية نشأت أغلبها فى الولايات المتحدة . ويعنى الانتشار استعارة عناصر جديدة من ثقافات أخرى مثل تبنى التربويين الأمريكيين لطريقة منتسورى الإيطالية ، أما إعادة التفسير فتعنى تحوير عنصر قائم لمواجهة الظروف الجديدة مثل امتداد المعونات الفدرالية للتربية والتعليم .

ولا تستجيب ثقافة ما بشكل كامل لأى تغير مهما كانت أهميته إن لم تكن ثقافة متماسكة إلى حد بعيد . إذ يؤثر تحول بعض النواحى الأساسية الثقافية إن عاجلا أو آجلا فى غالب العناصر الأخرى ، وإن كان ذلك يعنى التأثير المتساوى والمباشر . مثال ذلك التحول السريع فى الاتجاه العام نحو الحرب عند اكتشاف الطاقة النووية ، وإن كان ذلك لا يعنى بعد — وبنفس السرعة — التأثير على استخدام الأمة للوقود ومفهومها للشرعية السياسية .

أما مفهوم التخلف الثقافى فيعنى الاتجاه فى بعض النواحى الثقافية للتغير

ببطء أكثر من النواحى الأخرى . ولنرى أوضح مثال للتخلف الثقافى فى هذا البلد وهو عدم مسايرة التكنولوجيا للقيم [1] .

وبالرغم من الافتراض التقليدى لبعض علماء الإنسان فى وجود فاصل واضح بين تكنولوجيا المجتمع وبين قيمه . إلا أن التكنولوجيا فى الحقيقة تحتويها القيم إذ ترتبط الأساليب والعمليات التكنولوجية الجديدة من خلال وظائفها بأنماط السلوك التى يرتضيها المجتمع . والسيارة مثال على قيم الحراك الاجتماعى والملكية الخاصة وحب السرعة . ومقياس الحرارة والساعة تدلان على الاعتقاد بضرورة وإمكانية قياس الطبيعة وأن الحياة تحكمها قوانين ثابتة ويمكن معرفتها ، وأن ما يمكن ملاحظته وتكراره يعتبرمن الأشياء الهامة [2] .

وهكذا يتراءى لنا نظامان من القيم الثقافية التى قد تتفق معاً أولا تتفق . أحدهما تغذيه المبتكرات التكنولوجية والآخر تغذيه محصلة القيم المستقرة (و لا يعتبر الثانى دائماً من المبتكرات التكنولوجية وإن كان دون شك صادراً عن تلك المبتكرات فى الماضى) وإذا كانت القيم التى يعبر عنها التغير التكنولوجى تتمشى مع القيم المستقرة فان الثقافة ستتكيف مع التغيرات بسهولة تامة مهما كانت سرعة هذا التغير . ولهذا فان سرعة التغير التكنولوجى ليست هى المتسببة فى الخلل الثقافى وإنما السبب هو مدى ما يشمل هذا التغير من قيم جديدة متصارعة .

وكلما زاد تماسك الثقافة ازداد تداخل وتماسك تكنولوجيتها مع قيمها أما فى الثقافات الأقل تماسكاً عامة مثلما فى الولايات المتحدة فتتمكن التكنولوجيا من التخلص من قيد نظام القيم المستقرة . وهكذا تظهر لنا فى الأزمنة الأولى والمجتمعات قيماً ثقافية متمثلة فى التكنولوجيا التى يطبقها المجتمع .. ومن أمثلة ذلك : نجد أن الزراعة عند هنود مايا فى منطقة جنوب شرق بوكاتان ليست فقط وسيلة لتوفير الغذاء ولكنها طريقة لعبادة الآلهة .

ويبنى الهندى قبل بذر الحبوب مذبحاً فى الحقل حيث يؤدى فيه الصلاة وهكذا أصبح الحقل نوعاً من أنواع المعابد بحظر تدنيسه بلغو الحديث ، وهكذا نجد الزراعة إنما هى نوع من العقد الدائم بين الآلهة والناس تهب بمقتضاه الآلهة الناس ثمار الأرض مقابل الورع والقرابين [٣] . ولا ينطبق ذلك على خط التجميع فى الانتاج الحديث إذ يتم فى ظله رفض واضح لكثير من القيم الثقافية وأهمها الإيمان بأن الفرد هو هدف فى ذاته . ففى المصنع الحديث نجد أن العامل قطعة يمكن استبدالها . ووسيلة لغاية ألا وهى الإنتاج .

التربية والتغير الثقافي

سبق أن ذكرت أن التربية حالة ضرورية للاستمرار الثقافى . وهى كذلك وسيلة هامة للتعاون الواعى مع التغير الثقافى . وهكذا فان إحدى الوسائل التى يتبعها المجتمع لمواجهة التغيرات هى أن يقوم بتعليم الجيل التراث الثقافى فى مناهج المدرسة ، وللدخول لهذه الغاية يعيد المعلمون تفسير المعرفة القديمة والقيم لمواجهة المواقف الجديدة . ومن أمثلة ذلك أننا منذ تحطيم الذرة وإعلان الأمم المتحدة لم نعد ندرس الطبيعة النيوتونية أو الوطنية فى صورة مجردة . وبالإضافة إلى ذلك أدخلت معرفة ومهارات جديدة إلى المنهج كما تم هجر أخرى قديمة . ومثال ذلك : لقد تخففنا من تأثير اللاتينية واليونانية واحتضنت المدرسة العليا الدراسات الاجتماعية بحماس وشمل برنامجها التدريب المهنى لمواجهة طلب الصناعة المتزايد على العمال المهرة واتجهت من خلال تركيزها على العلم الطبيعى لتشجيع مزيد من المزاج الفكرى التجريبى .

وقد تتجه الثقافة كذلك للتمهيد للمستقبل بغرس بعض المعلومات فى الشباب والاتجاهات والمهارات المعدة لمواجهة مواقف نوعية متوقعة ، مثال ما نجده فى أمريكا من زيادة المصروفات التعليمية العلمية عموماً وتربية المهندسين بوجه خاص لكى تسبق الاتحاد السوفيتى فى ارتياد الفضاء .

وقد تكون الثقافة إلى جانب ذلك مصدراً ثقافياً غير هام للتغير . وتكيف كل ثقافة أهلها للتصرف والتفكير والإدراك فيما يسميه علماء الإنسان « العالم الثقافى المقيد » ويتكون من العالم الذى خلقته الثقافة لنفسها وتلك المظاهر المادية للعالم الذى اختارته وأعطته مدلوله . وقد كتب جولس هنرى : لو تمعنا فى الثقافات المستقرة ذاتها التى استكملت أو قاربت من استكمال عملية تضييق المجال الإدراكى للطفل وتدريب الطفل على إبعاد أى شىء عن فكره وأى من مدركاته التى لم تخترها له الثقافة [٤] إلا أن أكثر المبادىء الدكتاتورية لا تستطيع أن تحد تماماً من إدراك الطفل . وفى الحقيقة أن التباين بين ما يجب أن يتعلمه الطفل وما يتعلمه فعلا يعتبر مصدراً هاماً للصراع والتغير فى ثقافة ما . مثال ذلك : كثير من المدارس التسلطية تخلق روحاً ثورية تؤدى إلى إصلاح النظام التربوى الذى أضر بها فيما بعد .

ولو افترضنا أن بامكاننا استخدام التربية للمساهمة فى التغير الثقافى فهل يمكننا استخدام التربية للتأثير والتحكم فى هذا التغير ؟ ولقد أجاب النظريون التربويون المعاصرين على هذا السؤال بطرق ثلاثة . فلنفحص كل إجابة على حدة ونرى إلى أى حد يستمد كل منها مساندة من علم الإنسان .

التقدمية التربوية :

تقدم التربية التقدمية كما قد انتشر فهمه طريقاً وسطاً بين الرأيين القائلين أن التغير الثقافى يعتمد كلية على التغير الاجتماعى وأن التربية يمكن أن تصلح من شأنها وشأن المجتمع دون أن تتعاون بالضرورة مع القوى الاجتماعية [٥] وموضوعها الأساسى هو أنه بالرغم من عجز التربية عن تحديد اتجاه التغير الاجتماعى ، حيث إنها عاجزة عن إحداث صمود كاف ضد القوى الثقافية المتضاربة وإن كانت قادرة على تطوير عقلية قادرة على مواجهة التغير حال حدوثه بمعنى أنها تربى الأطفال حتى يستجيبوا للتغير بذكاء وهكذا يتم بهذه الطريقة تحسين أحوال المجتمع ذاتياً دون ما حاجة للمعلمين لإقناع الشباب

بالتغيرات النوعية التى يؤمن المدرسون بأنها تغيرات مرغوبة . وهكذا يجب أن يدرس الأطفال ويعالجوا المواقف النابعة من الحياة الواقعية ويكتشفوا بأنفسهم فيها مشكلات أصيلة . ومن هذه التجربة يكتسبون الاتجاهات الفكرية والعاطفية اللازمة وكذلك الأساليب الفنية العملية المتنوعة التى تمكنهم عموماً من التعامل مع التغييرات [٦] ونجد مثل هذه المواقف عند دراسة المشاكل المعاصرة بوجه عام من خلال العلوم الاجتماعية . ولا يقدم التربوى التقدمى مقترحاته الذاتية لحل المشاكل للأطفال حتى يناقشوها ولكن يسمح لهم ليستنتجوا تلك الحلول وفقاً لما لديهم من قيم [٧] .

يرفض التربوى التقدمى أية مشروعات لاستخدام المدرسة لخدمة برنامج الإصلاح الاجتماعى معتقداً أن مثل هذه الوظيفة المضافة للمدرسة تنتهك الحرية الفكرية للطفل وبهذا تحد من نموه ، كما أنه يعارض أى محاولة لتحديد ما يجب أن يكون عليه المجتمع الصالح على أساس أن المستقبل غير مضمون . كما يدعى أن فلسفته فى التربية أكثر الفلسفات ديمقراطية ، ولهذا يؤيد المجتمع الذى يخطط ذاتياً وفقاً لما نشأ عليه بدلا من المجتمع الذى يخطط له مسبقاً .

ووفقاً لمعاوماتى فانه لم يساند حتى الآن أى من علماء الإنسان النظرة التقدمية حول مسئولية المدرسة فيما يتعلق بالتغير الاجتماعى . وقد تبدو الفكرة القائلة بواجب المدرسة المباشرة لغرس العقلية التى تتمشى مع التغير من أول نظرة منسجمة مع آراء بعض علماء الإنسان مثل أنتونى ف . س . والاس الذى يعتقد أن التغير السريع قد لا يكون ضاراً نفسياً وإن نشأت عنه أنماط متنوعة من الشخصية [٨] . وهذه النظرة غريبة بالضرورة عما ينادى به علماء الإنسان من أن التغير السريع يميل إلى زعزعة الشخصية [٩] .

مذهب المحافظين التربويين :

إن المدرسة عند المعلمين المحافظين (مثل التواتريين والجوهريين)

لا تستطيع فرض سرعة معينة للتغير الاجتماعى دونما إفساد لوظيفتها الحقيقية وهى ممارسة الفكر . إن المدرسة ليست مجرد هيئة إصلاحية ولكن منظمة تعليمية . ولما كان التحول الاجتماعى يتم على أيدى الأفراد وليس العكس لهذا فان الطريق الحقيقى لإصلاح المجتمع هو تطوير الأفراد داخله [١٠].

ومن هذه النظرة نرى أن المدرسة مشغولة عن فرض كل ما يستحق الاهتمام على الطالب فى التراث الثقافى الدائم ولتكيفه مع المجتمع كما هو فى وضعه الحالى . فاذا ما تحولت المدرسة لمشروع إصلاحى ثقافى فانها تعد الطالب للحياة فى وسط لن يتحقق أبداً بدلا من تكييفه للظروف التى سيكسب تحتها عيشه [١١] .

زد على ذلك أن طالب المدرسة الثانوية يفتقر للتجربة أو الجدية التى تمكنه من تقدير مشاكل الإصلاح الاجتماعى والثقافى . كما لا يجدى أن نتوقع منه رأياً فى المشاكل المعاصرة طبقاً لما لديه من قيم ، ولايرجع ذلك إلى قصور فى تلك القيم فحسب ولكن لأن مثل هذه المشاكل يجب أن تبحث على ضوء القيم الأساسية للثقافة وهى جزء ضرورى من تراثها ومن هنا فانها موضوع لا يناسب المناظرات المدرسية [١٢] .

كما أن جعل المدرسة هيئة إصلاحية قد يجعلها تقع بين أيدى الجماعات المتنافسة ذات المصالح . وقد تنحدر المدرسة إلى ما يشبه الثقافة السياسية تحت الضغط المستمر لتقديم جميع الاتجاهات والبرامج السياسية التى يفسدها التعصب .. ويقول هتشنز فى ذلك :

إذا سمح بامكان الإصلاحات الاجتماعية من خلال المدرسة التى يميل إليها المرء ، فيجب أن يسمح بامكانية السماح بالحصول على الإصلاحات الاجتماعية التى يكرهها المرء . وسيعتمد ما يحدث على شعبية عديد من المصلحين وطرافة قضاياهم وما يمارسونه من ضغوط على النظام التربوى [١٣] .

مذهب التجديدية :

إن جوهر مذهب التجديدية هو أن المعلمين ذاتهم يجب أن يعيدوا بناء المجتمع بتعليم الشباب برنامجاً للإصلاح الاجتماعى الفورى الشامل والمفصل ويدعى هذا المذهب أنه يعالج ثلاثة مثالب لدى المذهب التقدمى : الافتقار للأهداف . وعدم تأكيد الفردية . والتقليل من ضرر العقبات الثقافية على التغير الثقافى .

يقول تيودور براملد: إن مذهب التقدمية يفشل فى عرض خطوط محددة للحركة الاجتماعية ، ويرجع ذلك جزئياً لأن العملية تحوز إعجابه بدلا من الأهداف الفكرية لأنه يؤمن بأن عمومية التغير تبرر أى شكل من الالتزام إلى أهداف نوعية طوياة الأجل [١٤] . كما يقول أن مبدأ التقدمية يود أن تتولى المدرسة أساساً تحسين الذكاء الفردى . كما يصر أنصار التقدمية على ضرورة استخدام هذا الذكاء استخداماً تعاونياً وإن لم يحددوا الأهداف التى تكون محل هذا التعاون بين الناس . ويعلن براملد أن مذهب التقدمية يسىء فهم المجتمع كما لو كان تجمعاً للأفراد ويهمل الطبيعة العليا للفرد فى كثير من القوى والمنظمات مثل الطبقات الاجتماعية الاقتصادية والوسائل الجماهيرية والجماعات الضاغطة وبقية مراكز القوى الأخرى فى المجتمع . كما يقلل من أثر ما يحدث من نماذج ثقافية وبهذا يبالغ فى تأكيد جدة التاريخ وفرض التغير دون تخطيط وحتمية التقدم [١٥] . كما لا يدرك المبدأ ضرورة التخطيط الفكرى المسبق للتغيرات الاجتماعية العريضة وأن يتم ذلك باستخدام جميع الموارد المتاحة .

ويجب أن تنسجم فى المجتمع الجديد القيم الأساسية للثقافة الغربية مع القوى الدافعة فى العالم الحديث . إن الديمقراطية بالضرورة هى سيطرة الشعب على منظماته الرئيسية وموارده – كالصناعة والنقل والصحة وما إلى ذلك [١٦] وإن الهدف المنطقى لجميع الديمقراطيات القومية هو تحقيق

الحكومة العالمية التى تساهم فيها جميع الدول .

ويرى براملد أنه يتحتم على المدرسة إقناع تلاميذها بأن برنامج مذهب التجديد هو برنامج صحيح وعاجل على أن يتم ذلك بطريقة ديمقراطية وإلا أنكرت مبدأها الذى تنادى به وهو الديمقراطية . كما يجب أن يشجع المدرس تلاميذه لبحث ما يؤيد وما يعارض مذهب التجديد وأن يقدم المقترحات البديلة عنه بدقة شديدة ، كما يسمح للأطفال بمناقشة أفكارهم على الملأ ، وأن يترك القرار الأخير بقبول أو رفض هذا المذهب إلى التلاميذ ذاتهم . أو كما يقول براملد :

إننا مدرسون ومواطنون لنا معتقدات والتزامات وانحيازات نعتقد أنها منيعة ولها إمكانية الدفاع عنها . ولا نرجو أن نعرضها فى ميدان عام أو ندعو لمناقشتها كلا على حدة بحرية تامة فحسب بل نعمل على قبولها بأكبر أغلبية ممكنة » (١٧) .

إلا أنه يؤمن أن برنامج التجديد سينال قبول التلميذ بسبب فضائله .

لقد نال مذهب التجديد مزيداً من الاهتمام وقليلا من التأييد . لقد انتقد على أساس طموحه البالغ . إن رسم المستقبل فى مثل هذا التفصيل إنما يتجاهل حقيقتين معروفتين : الأولى : أن الزمن يجعل من خطط الإصلاح الطويلة الأمد أمرا لا يتناسب مع ما يتم فيما بعد . والأخرى أن ما يتحقق من إصلاح إنما هو نتيجة اتفاق وتكييف مشترك . ومن هنا فانه لا يتصل كثيراً باعداد من قام به منذ البداية . كما يقال أن مذهب التجديد يتجاهل حقائق السياسات المعاصرة وخاصة ما يتعلق برفض أى حكومة استخدام مدارسها لإدخال وجهة نظر لا تتفق معها . وزد على ذلك وقوع مذهب التجديد فى نفس الخطأ الذى يتهم به مذهب التقدمية عند تأييده للتغير والتجديد الذى يدعو إليه . إذ يقلل من قيمة مدى تشكيل النماذج الثقافية المتأصلة للطرق التى يدرك ويدعم بها الناس التغير (١٨) . بل إن فى

دعوة الطالب لقبول برنامج للإصلاح الاجتماعى لم يتفق عليه المجتمع بعد فان مذهب التجديد لا يمكنه سوى إشعاره بالاغتراب عن ثقافته ، وعن كبا السن وجيله وخاصة من لم يحضر منه مدارس مذهب التجديد (١٩).

وهناك انتقادات قد توجه لتلك المحاولات الرامية ، مثل مذهب التجديد لا ستخدام التربية لخلق نظام اجتماعى جديد . ولما كان التغير الفنى الاقتصادى واحداً من المحركات الأساسية للنمو الثقافى ، فيجب إذا أردنا إعادة توجيه المجتمع أن نسيطر أو بأى شكل من الأشكال نؤثر فى معدل وفى توجيه التطورات الفنية الاقتصادية . ومن الواضح أن التربية ليس بمقدورها ذلك . والبديل لذلك أن ندع التكنولوجيا تفتح الطريق للثقافة لكى تتابع وتضيق التخلف الثقافى بالسماح للتربية برفع معدل تغير القيم الثقافية . وقد يشك المرء مرة أخرى فى قدرة الثقافة وحدها فى تحقيق ذلك وحتى إذا تمكنت من ذلك فان مثل هذا التغير الكمى السريع سيكون عبئاً على شخصية الفرد (٢٠) .

وفى رأيى أن مذهب التجديد مبدأ خاطىء فى جعله المدرسة أداة الإصلاح الاجتماعى إذ يضيق ذلك مجال التربية . فالمدرسة الإصلاحية ستقصر تعليمها بالتأكيد إلى أنواع المعرفة المحتمل تأييدها لمبدئها . وحتى إن لم تفعل ذلك فان فرض الإصلاح يجعل هناك احتمال حرمان نواحى التربية الأخرى من الاهتمام الواجب وهو أمر بالغ السوء . كما أن التربية ليست سوى تنظيم بين تنظيمات كثيرة لا يمكنها وحدها أن تدفع من خلال برنامج إصلاحى ائتلاف مجموعة من المصالح الأخرى مثل : العمل ، والتجارة ، والكنيسة . وأهم من ذلك لا يمكن للتربية الرسمية سوى أن تتناول الغلاف الخارجى للتغير الاجتماعى والثقافى الذى ينبع حقيقة من الأعمال التى تتمثل فى أحداث الحرب والغزو والثورة والصراع الطبقى والابتكار التكنولوجى والهجرة الجماعية (٢١) .

آراء بعض علماء الإنسان :

تتفق قلة من علماء الإنسان على خطة جعل المدرسة حليفة الإصلاح الاجتماعى ضد جميع القوى الاجتماعية والثقافية الأخرى . ولقد فشل برنامج براملد التجديدى فى تحقيق أى تأييد على ما علم من علماء الإنسان بالرغم من مؤلفه الرائد فى علم الإنسان التربوى . وقد اقترح عالم الإنسان اشلى مونتاجو من ناحية أخرى مشروعاً تربوياً خيالياً مشابهاً وبه آراء تنتمى إلى التراث الرومانتيكى التقدمى الذى ينحدر من « روسو » وكتابه « إميل » ثم « فردريك فروبل » حتى نصل إلى مدارس العشرينات حيث المدارس التى تركز على الطفل .

يرى مونتاجو أن أول غرض من المدرسة فى عصرنا هو أن تتحول الإنسانية على الأقل إلى تعليم شباب الجيل كيف (يحب) من خلال تربيته فى (فن) العلاقات الإنسانية ، ويجب أن يتم التعليم فى المدرسة فى جميع الموضوعات مع ربطها (بما تعنيه بالنسبة للعلاقات الإنسانية) (٢٢) . كما يجب أن تشجع الطلبة لتقدير العالم (إنسانياً وانتقادياً) وليس مجرد ترديد ما يقوله والداهم ومدرسوهم فحسب . كما يجب أن تتوقف عند فرض القيم الاجتماعية الصناعية مثل التنافس ، والنجاح المادى ، وإنما تطوير قيم مثل الصبر والتعاون والبر والهدوء النفسى . بل زد على ذلك أن واجب المدرسة أن تعلم طلبتها كجزء من تدريبهم على العلاقات الإنسانية ما هو المجتمع الحالى ولماذا وكيف يتغير مادام النظام الجديد لن ينبنى على مجرد النوايا الطيبة وحدها (٢٣) .

يقول منتاجو : لو كان للمدرسة أن تجعل من الطفل شخصاً محباً فيجب أن تضمه إليها منذ سنوات حياته الأولى . وبالرغم من دور المنزل الرئيسى فى تكوين الشخصية فان المدرسة هى أفضل مكان لتعليم العلاقات الإنسانية لأن كثيراً من الآباء لديهم إحباط عاطفى فلا يصلحون كمعلمين لأبنائهم .

لذلك يجب إلحاق جميع الأطفال بمدارس الحضانة العامة . أضف إلى ذلك أن الأمهات والنساء قد حبتهن الطبيعة عن الرجال بميلهن للحب لذلك يجب أن يقمن بالدور الرئيسى فى تعليم وإصلاح البشرية (٢٤) .

ونجد الاعتراضات على هذه الخطة موجودة فى نقد مذهب التجديدية . وسأذكر اعتراضين آخرين . أولهما عدم ذكر مونتاجو فى كتابه أية إصلاحات اجتماعية معينة . فلو كان المجتمع فى سبيله للإصلاح وإن كانت المدرسة هى التى سترسم لتلاميذها كيفية تنفيذ ذلك فاننا فى حاجة إلى شىء ملموس أكثر من القول بتغيير قيم معاصرة معينة بأخرى غيرها . وثانيهما : تجاهل مونتاجو للسؤال الهام حول كيفية إغراء مجتمع صناعى يصارع على مستوى العالم من أجل القوة والسيطرة أن يتبنى نظاماً تربوياً يتضح منه العمل ضد التنافس .

ويرى معظم علماء الإنسان – وليس أولئك الذين يعتبرون الثقافة فوق عضوية وحدهم – أنه من المتعذر على التربية أن توجه القوى الاجتماعية والثقافية . وتعلن روث بنيدكت مثلا أن التربية لا تحفز التغير السريع لأن التغير نتج من عوامل ثقافية أعمق وأوسع انتشاراً من التربية ذاتها :

تنبع مشاكلنا فى نشر الثقافة من سرعة التغيرات الاجتماعية فى مجتمعنا ولا يمكن لأى أسلوب فى التربية أن يمنع ذلك .. أما النقاد الذين يلومون التربية على التغيرات التى تسوءهم فى ثقافتنا ، فانهم يجعلون من النظام التربوى كبش الفداء للتغيرات الواسعة فى بناء المجتمع العصرى وهو ما لم يأخذونه فى الحسبان (٢٥) .

ويناقش و. لويد وارنر ذلك،ويقول أن التربية يجب أن تعكس بالضرورة الظروف الاجتماعية السائدة وإلا فشلت فى واجبها فى تكييف جيل المستقبل للوسط الاجتماعى والثقافى الذى يتحتم عليه العيش فى ظله ،

ومهما كانت المثاليات التى تفرضها المدرسة نبيلة فانها قد تضر الطفل إذا كانت غريبة عن هذا الوسط (٢٦) .

ويؤكد أنتونى « والاس » أن التربية تسد احتياجات ثلاثة أنواع من المجتمعات (المجتمع الثورى) و (المجتمع المحافظ) و (المجتمع الرجعى) (٢٧) كما يقول أن المجتمع الثورى مثلما فى الصين وكوبا يسعى إلى تحول ثقافته تحولا كلياً كما يحتاج إلى بعث الحياة ثانية فى شعبه معنوياً ويخلق صفوة أصيلة مفكرة ومتفرغة لتنفذ واجب التحول . ومن هنا تؤكد تربيتها على الخلق أولا (وبخاصة للولاء والتضحية بالذات) ثم التمرين الفكرى وأخيراً المهارات الفنية . بينما نجد الاهتمام الرئيسى فى المجتمعات المحافظة مثلما فى بريطانيا والولايات المتحدة هو تأكيد وتحسين النظام القائم، ولا تلعب الأخلاق أو الفكر مثل هذا الدور الحيوى بل تتجه التربية هنا للتركيز على المهارات الفنية وعلى (كيفية عمل) بعض الأشياء مثل قيادة السيارات ، والمحاسبة ، وإعطاء الأصوات الانتخابية بذكاء ، وحسن التعامل مع الناس ، أما المجتمعات الرجعية مثلما فى البرتغال وجنوب أفريقيا ، فبينما تواجه الحركات الثورية فإنها تحاول مساندة القيم التقليدية التى هى موضع الهجوم وذلك بأن تضع الأخلاق فى مركز نظامها التربوى ، وتتجه بذلك إلى الحد من النمو الفكرى . ويرى « والاس » بعض الاتجاهات نحو الرجعية فى الثقافة الأمريكية . ويذكر لنا انشغال المربى البالغ قبل المهنة بالمهارات الفنية فى دراسة قيادة السيارات والجنس والزواج والاهتمام المتزايد بالأخلاق كما تبدو فى القسم بالولاء والرقابة على الكتب واستجواب المدرسين والعلماء . وبحث الأمريكيين لمقاومة ، وفى هذه الاتجاهات ، باعادة توجيه المدرسة لواجبها السابق فى التمرين على الفكر الحر .

وهكذا يتفق غالبية علماء الإنسان مع التربويين المحافظين فى أن المدرسة ليس لها سوى أثر مستقل بسيط أو لا أثر على الإطلاق على التغير الاجتماعى

والثقافى . ويعبر عن هذه الفكرة تعبيراً سليما تربوى بريطانى هو أ . ك . س أوتواى إذ يقول أن التربية يمكن أن تؤدى إلى تغيرات ثقافية واجتماعية ، ولكن تحت نظم تتمتع بالسلطة (٢٨) . ويمكن أن تحول التربية وبخاصة فى البلاد الجماعية اتجاهات جيل بأكمله ، وأنها تفعل ذلك لأنها موجهة وذلك بسبب الحزب الحاكم ، كما يمكن أن تمهد التربية للتغيرات أمام الجيل بتشجيع عادة الحكم المستقل ، ولكن نقول مرة أخرى أن التربية لا تؤثر كذلك إلا إذا كان هذا الحكم يقدره المجتمع فعلا على العموم (٢٩) .

وموجز القول ، أن أغلب المعلقين يتفقون مع المدرسة على التأثير وحدها على مجرى التغير الاجتماعى والثقافى وإن كانت تستطيع غرس نموذج لشخصية تستجيب للتغيرات السريعة المتوطنة فى المجتمعات الصناعية . وتهتم المدارس الابتدائية والعليا اليوم فى الولايات المتحدة أساسا بنشر التراث الحضارى ، ومن ناحية أخرى تقوم الجامعة زيادة على نشر التراث باكتشاف الجديد فى المعرفة ، وتبحث وتنتقد المجتمع . وهكذا فان الجامعة لا تتكيف مع الثقافة ، ولكنها تضيف إليها كما تؤثر بالإضافة إلى ذلك بطريقة غير مباشرة فى الثقافة بمحاولة جعل الناس أكثر معرفة ومن هنا (يتمنى المرء) أن يصبحوا أى الناس أكثر تسامحاً . وأخيراً فانها تساعد على تميز الثقافة باعداد الأفراد لمهن متعددة . إذن فهناك مبرر على الأقل فى قولنا أن للجامعة أثراً صغيراً وغير نوعى وإن كان غير مفيد فى تطور الثقافة . إلا أن هذا لا يعنى أن تكافح مدارسنا أكثر فأكثر حتى يكون لها أثر ملموس . إن المجتمع المتعلم مجتمع مرغوب فيه من جميع وجهات النظر وإن لم يكن للتربية أى دور فيمكن عن طريقها تدريب القادة فى جميع ميادين الحياة حتى يصبحوا على وعى ذكى أفضل بالقوى المؤثرة التى تشكل تقدم ورفاهية الثقافة هنا وفى كل مكان .